Suleiman pasha al-Khadems campaign against Yemen and India 1538

Dr. Alaa al-Din jabbour*

(Received 30 / 6 / 2022. Accepted 20 / 9 / 2022)

□ ABSTRACT □

The research talks about an ottoman military campaign to yemen and india carried out by the governor of Egypt Suleiman pasha al-Khadem in 1538, commissioned by the ottoman Sultan Suleiman the Magnificent, to extend the borders of ottoman control The subjection of Yemen to the ottoman rule due to the weakness of the Mamluk power in yemen, which was quick to recognize the ottoman sovereignty, and the protection of Islamic holy sites in the Arab seas.

The ottomans realized after seizing Egypt the importance of yemens role in their conflict.

With the Portuguese, and his assistant, the sultans and princes of india in resisting the colonial expansion of the Portuguese on the coasts of the Red sea, and discusses its details from the causes of events and results, as well as sheds light on its importance in terms of time and place, and the resulting changes in the course of the history of yemen, as well as in the events of the ottoman- Portuguese conflict on the waters of the Indian ocean.

Key words: ottoman Empire, yemen, india, Portuguese, Red sea.

* **Assistant Professor, history department Faculty of Arts and Humanities ,Tishreen university, Lattakia, Syria.**

حملة سليمان باشا الخادم على اليمن والهند 1538م

د. علاء الدين جبور*

(تاريخ الإيداع 30 / 6 / 2022. قبل للنشر في 20 / 9 / 2022)

ملخّص

يتحدث البحث عن حملة عسكرية عثمانية إلى اليمن والهند قام بها والي مصر سليمان باشا الخادم عام 1538م بتكليف من السلطان العثماني سليمان القانوني، لمد حدود السيطرة العثمانية وإخضاع اليمن للحكم العثماني بسبب ضعف القوة المملوكية الموجودة في اليمن التي سارعت بالاعتراف بالسيادة العثمانية، وحماية المقدسات الإسلامية في الحجاز، والتجارة العالمية في البحار العربية، فقد أدرك العثمانيون بعد الاستيلاء على مصر أهمية دور اليمن في نزاعهم مع البرتغاليين، ومساعدة سلاطين وأمراء الهند في مقاومة التمدد الاستعماري للبرتغاليين على سواحل البحر الأحمر، ويناقش تفاصيلها من أسباب وأحداث ونتائج، كما يلقي الضوء على أهميتها من حيث الزمان والمكان، وما ترتب عليها من تغييرات في مجرى تاريخ اليمن، وكذلك في أحداث الصراع العثماني البرتغالي على مياه المحيط الهندي.

الكلمات المفتاحية: الإمبراطورية العثمانية، اليمن، الهند، البرتغاليين، البحر الأحمر.

* **مدرس – قسم التاريخ– كلية الآداب والعلوم الإنسانية–جامعة تشرين– اللاذقية– سورية**

مقدمة:

يقع اليمن في الركن الجنوبي لشبه جزيرة العرب، وهو يحتل موقع استراتيجي هام فهو يقع على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وشهدت بداية القرن السادس عشر توسع كبير للدولة العثمانية تجاه المنطقة العربية، وهذا ما فرض عليها إرسال حملات عسكرية إلى هنا وهناك من أجل الحفاظ على وجودها والدفاع عن حدودها في هذه المناطق، ويرجع سبب زحف العثمانيين إلى الجنوب بعد أن استقروا في مصر إلا أنهم ورثوا تركة المماليك ومشكلاتهم، والتي كان منها تحول الطريق التجاري إلى رأس الرجاء الصالح بعيداً عن مصر، ومحاولة إعادته إليها، ومثلت حملة سليمان باشا الخادم إلى اليمن والهند إحدى هذه الحملات التي يمكن وصفها أيضاً بأنها إحدى أمثلة الصراع البرتغالي العثماني في مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر، فقد ظلت اليمن بعيدة عن السيطرة العثمانية مدة طويلة، وذلك لبعدها عن مركز الدولة العثمانية، وتنوعت تقييمات هذه الحملة بكتابات المؤرخين المعاصرين لها، ولذلك كان لابد لنا من الإحاطة بتفاصيلها، ومناقشة أحداثها ونتائجها بموضوعية عبر تنوع مرجعي يوصلنا إلى تقييم صادق لها.

سبب اختيار البحث:

يعود سبب اختيار هذا البحث إلى الرغبة في معرفة أسباب اندفاع العثمانيين للسيطرة على اليمن والهند رغم بعدهما عن مركز الدولة العثمانية، ومعرفة الإستراتيجية التي اتبعتها الدولة العثمانية للسيطرة على اليمن والهند وما هو وضع اليمن بعد إخضاعها للدولة العثمانية.

أهمية البحث:

تنبع أهمية هذا البحث من خلال إدراك العثمانيين لأهمية اليمن والهند في نزاعهم مع البرتغاليين بعد استيلائهم على مصر، وأهمية عودة التجارة إلى الموانئ العربية والهندية المنتشرة على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي لإعادة العائدات التجارية التي خسرتها الدولة العثمانية.

إشكالية البحث:

إن إرسال السلطان سليمان القانوني لهذه الحملة إلى اليمن والهند، وإخضاعه اليمن للحكم العثماني يفرض على البحث العديد من التساؤلات ومنها:

-هل كان إخضاع اليمن للسيطرة العثمانية قائم على رغبة العثمانيين في بسط سيطرتهم على المناطق العربية التي لم تخضع لهم بعد، أم لقيادة المعركة ضد التوسع البرتغالي في الموانئ العربية والهندية؟

-هل كان الصراع العثماني هو صراع سياسي مع البرتغاليين، أم كان صراع اقتصادي قائم على السيطرة على الموانئ التجارية في البحر الأحمر والمحيط الهندي؟

-هل ساعد السلاطين والأمراء الهنود الحملة العثمانية على اليمن والهند، أم كان لهم دور في فشل هذه الحملة على الهند؟

-هل كان السلطان سليمان القانوني موفقاً في اختيار سليمان باشا الخادم لمثل هذه المهمة، أم كان أسلوب سليمان باشا الخادم وسياسته في إدارة هذه الحملة سبباً في تغيير نتائج هذه الحملة؟

منهجية البحث:

يعتمد البحث على المنهج التاريخي القائم على جمع المصادر والمراجع الخاصة بتاريخ اليمن والهند والدولة العثمانية، ومن ثم دراسة أحداث الحملة العثمانية وتحليلها لهذه الأحداث للوصول إلى نتائج هذه الحملة ووضع العثمانيين في اليمن.

1-مبررات الحملة وأهدافها:

كان لحملة سليمان باشا الخادم[1] على اليمن والهند عام 1538م أسباب متعددة ومتداخلة أهمها الاستغاثات المتكررة من قبل الأمراء والسلاطين الهنود بالسلطان العثماني سليمان القانوني (1520-1566م)[2] لمواجهة الخطر البرتغالي الذي اكتسح بحار المحيط الهندي وسيطر على ميناء الديو[3] غرب الهند[4] ، فرأى أمراء الهند أنهم لم يتمكنوا من مواجهة البرتغاليين بإمكانياتهم الضعيفة، إضافة إلى أن التشرذم في الإمارات الهندية وتشعب الحكام فيها آنذاك كان من العوامل التي ساعدت البرتغاليين على تثبيت أنفسهم على الساحل الغربي للهند[5]، وكان السلطان سليمان القانوني في ذلك الوقت لديه رغبة قوية بأن يقوي حدود السلطنة العثمانية من الجنوب من الناحية البحرية، وكذلك فإن امتداد النفوذ الاسمي للسلطنة العثمانية إلى الهند كان أمراً لا يفوت بالنسبة له، ومن ناحية أخرى فإن السلاطين العثمانيين كانوا يعتبرون أنفسهم المدافعين عن الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة وهذا الأمر لا يستقيم مع الهجمات المتكررة للسفن الحربية البرتغالية على موانئ اليمن وجدة بعد أن استطاعت سفنهم التوغل أكثر من مرة في مياه البحر الأحمر ومهاجمة عدن[6] وجدة وقصفها بالمدافع[7]، وحاول البرتغاليون أكثر من مرة في الفترة بين عامي (1517-1538م)

---

[1] سليمان باشا الخادم: لقد كان من المقربين من السلطان سليم الأول، وترقى في المناصب، حتى أصبح من الشخصيات المهمة في الدولة العثمانية، ولكنه كان عديم الرأي ومحباً لسفك الدماء. النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي (917-990هـ): البرق اليماني في الفتح العثماني (تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر)، أشرف على طبعه حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ط1، 1967م، ص70-71.

[2] السلطان سليمان القانوني: ولد سليمان الأول عام 1494م، تولى العرش في عهد والده وكان له من العمر خمس وعشرون سنة، قام بحق الخلافة التي ورثها خير قيام سن القوانين وأرسى قواعد ملكه، وثبت دعائمه، لقب عن جدارة بالقانوني. ينظر عامر، محمود علي: تاريخ الدولة العثمانية، منشورات كلية الآداب في جامعة دمشق، دمشق، 2003-2004م، ص252.

[3] ديو: تقع على مدخل الخور الذي تقع عليه كمباي، وهو ميناء زاخر بالبضائع الواردة من مختلف بلدان المحيط الهندي، وحصلت بها الموقعة الشهيرة موقعة ديو البحرية 1509م، التي حسمت الأمر للبرتغاليين ضد المماليك وحلفائهم من بعض أمراء الهند ومنهم جاكم ديو. ينظر عثمان، شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية (41-904هـ/661-1498م): عالم المعرفة، الكويت، 1990م، ص132 و الشيخ، زين الدين: تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، لشبونة، 1898، ص40-41.

[4] سالم، سيد مصطفى: الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م، دار الأمين للطباعة والنشر، القاهرة، ط5، 1999م، ص158-160.

[5] البطريق، عبد الحميد: تاريخ اليمن الحديث 1517-1840م، مركز الدراسات والبحوث العربية، القاهرة، 1969م، ص22-25.

[6] عدن: مدينة معروفة ومشهورة في جنوب اليمن على ساحل البحر الهندي، وهي من أعظم ثغور اليمن يحيط بها سلسلة جبال من خلفها البحر، ولها طريق إلى البر من بطن الجبل منحوتة بزبر الحديد من قديم الزمان، وبها مخازن لمياه المطر النازل من الجبل تعرف بالصهاريج. ينظر اليماني، القاضي محمد بن أحمد الحجري اليماني: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الثاني، ج3، تحقيق وتصحيح ومراجعة إسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1984م، ص 582.

[7] الموزوعي، شمس الدين عبد الصمد بن إسماعيل: الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1986م، ص22-26.

أن يسيطروا على عدن ويتخذونها قاعدة بحرية لهم، وبالتالي يستطيعون مد نفوذهم شمالاً وصولاً إلى جدة محققين بذلك نصراً اقتصادياً بالسيطرة على التجارة واحتكارها في البحر الأحمر والمحيط الهندي، ونصراً سياسياً على الدولة العثمانية.[8]

لم يكن السلطان سليمان القانوني يستطيع الاعتماد على بقايا المماليك المعترفين بالنفوذ العثماني في اليمن منذ عام 1517م في صد الهجمات البرتغالية خاصة وأن اليمن في تلك الفترة كان يعيش صراعات داخلية مريرة بين هؤلاء المماليك وبين القوى المحلية على السلطة والحكم[9]، وكان يمكن للبرتغاليين أن يستفيدوا من هذا الأمر وينفذوا من خلاله إلى اليمن، وبنفس الوقت لا يستطيع السلطان العثماني أن يعتمد على ولاة جدة في هذه المهمة لأنها تحتاج إلى أسطول ضخم مزود بأسلحة قوية وحديثة وعدد كبير جداً من رجال البحرية ، وإذا نظرنا إلى الأمر من ناحية أخرى فسنرى أن إرسال هذه الحملة بالنسبة للعثمانيين قد أصبح ضرورة ملحة فرضت نفسها عليهم، فهم منذ استيلائهم على مصر عام 1517م بعد معركة الريدانية لم يكن لهم وجود فعلي في جنوب شبه الجزيرة العربية، وخاصة اليمن الذي لم يكن خاضعاً لهم بشكل فعلي رغم حساسية موقعه وأهميته على الحدود الجنوبية للسلطنة العثمانية.[10]

أرسلت الدولة العثمانية أكثر من حملة بحرية إلى اليمن بين عامي (1517–1538م) عن طريق ولاة مصر وجدة لكنها لم تنجح في تغيير الوضع القائم هناك، وظلت النزاعات الداخلية قائمة فيه، إضافةً إلى اعتبار المماليك أنفسهم حكاماً مستقلين في اليمن بينما أرادت الدولة العثمانية أن تثبت وجودها بشكل فعلي هناك، وأن تعين الولاة في اليمن بأمر سلطاني من استانبول، وليس كما جرت العادة منذ امتداد النفوذ الاسمي للعثمانيين في اليمن، وهي التوافق بين المماليك على اختيار حاكم من بينهم، والذي كان يفرض نفسه حسب قوته وكثرة أنصاره من الجنود المماليك وإن كان يتلقى مرسوماً بتعيينه من السلطان العثماني، ولكن بشكل صوري فقط.[11]

اختار السلطان سليمان القانوني والي مصر عام 1538م، وهو سليمان باشا الخادم للقيام بهذه الحملة، وأمره بأن يجهز أسطولاً قوياً من مصر لهذه المهمة واضعاً أمامه عدة أهداف لتحقيقها أهمها تثبيت النفوذ العثماني في اليمن بشكل رسمي، وطرد البرتغاليين من مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي، وتعزيز دفاعات المدن الساحلية في البحر الأحمر بشكل كبير، فضلاً عن مؤازرة أمراء الهند في معاركهم ضد البرتغاليين[12]، ولكن الوالي سليمان باشا الخادم كما تشير الوقائع لم يكن مؤهلاً للقيام بمثل هذه الأعمال، فهو لم يكن من القادة البحريين المعروفين أو المتمرسين في الدولة العثمانية كأمثال خير الدين بربروسا وغيره، ناهيك عن بعض الصفات الخاصة به، والتي جعلته غير محبب لدى الضباط العثمانيين أو الولاة الآخرين، وكذلك من قبل الأهالي أو الزعماء المحليين سواء في اليمن أو مصر، وحتى في الهند، كما سنرى فيما بعد، وهذا غير بعض الصفات الأخلاقية السيئة التي عرف بها، كما تذكر المصادر وتؤكده الأحداث كالغدر والخيانة، حتى مع المقربين والأصدقاء من حاشيته، وهذا ما سيجعل نجاح حملته أمراً صعباً في ظل ما تحتاجه هذه الحملة من حنكة، وإعطاء صورة جيدة نوعاً ما عن العثمانيين سيما أن هذه الحملة ستجعلهم يثبتون

[8] النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص33–40.

[9] الكبسي، محمد بن إسماعيل، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، تحقيق خالد الأزرعي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط1، 2005م، ص 226–230.

[10] عمر، عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي (1516–1922م)، دار النهضة العربية، بيروت، 1984م، ص100–103.

[11] النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص34–40.

[12] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص155–159.

نفوذهم في مناطق لم يصلوا لها من قبل، أو يمكن القول بأنه سيكون الوجود الفعلي الأول لهم في مناطق هذه الحملة.[13]

رغم جميع ما ذكرناه آنفاً إلا أن سليمان باشا الخادم جهز حملته التي تألفت من أكثر من سبعين سفينة وما يقارب من عشرين ألف جندي عثماني واتخذ عدة خطوات لتنظيم الحملة والإشراف عليها، وكذلك أرسل من قبله رسولاً إلى المماليك وإلى السلطان عامر بن داوود الطاهري[14] في عدن وإلى سلطان الشحر[15] يعلمهم بنبأ الحملة ويطلب منهم تقديم التسهيلات لها.[16]

2-سير الحملة وأحداثها:

انطلقت الحملة من ميناء السويس في مصر في 1538/6/13م، وتوغلت جنوباً في البحر الأحمر، حتى وصلت إلى جزيرة كمران[17]، ولبثت بها لبعض الوقت لتنظيم نفسها، ولم ينزل سليمان باشا الخادم إلى الموانئ اليمنية مباشرة حتى يعلم موقف القوى المحلية هناك من حملته، كي لا تكون في معرض الخطر فتتالت عليه الرسائل من قبل السلطان عامر بن داوود الطاهري والإمام يحيى شرف الدين[18]، وكان كل منهما يرحب به ويستنصره ضد الطرف الآخر، وهذا ما سيستفيد منه سليمان باشا الخادم إلى حد كبير.[19]

تابعت الحملة طريقها إلى عدن فرحب السلطان عامر بن داوود الطاهري بها ترحيباً كبيراً، وأمر جنوده بفتح أبواب المدينة للعثمانيين، حتى يتزودوا بما يشاؤون من المدينة، وكان هذا موقفاً طبيعياً من السلطان عامر بن داوود لأن سليمان باشا الخادم كان قد وعد بمساعدته في حربه ضد الأئمة الزيديين[20]، وتوجه الطاهري مع كبار رجال دولته إلى

---

[13] الصديقي، محمد بن أبي السرور البكري (998-1071هـ/ 1589-1661م): المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق الدكتورة ليلى الصباغ، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1995م، ص148-154.

[14] هو آخر سلاطين الدولة الطاهرية التي حكمت اليمن بين 1554م حتى 1538م، ينظر في كتاب شرف الدين، أحمد حسين: اليمن عبر التاريخ، المطبعة المحمدية، القاهرة، ط2، 1964م، ص226-244.

[15] الشحر: مدينة على ساحل المحيط الهندي في المنطقة الشرقية من حضرموت. ينظر في الحموي، ياقوت: معجم البلدان اليمانية، تحقيق إسماعيل الأكوع، مكتبة الجديد، صنعاء، 1984م، ص162-163.

[16] Serjeant, R.B: The portuguese of the so the Arbian coast, Hadirmi chronicles with yamn and Eurpen Accounts of dutch pirates off Mocha in 17 th century, oxford, claren, Dont press, 1983, p.75-80.

[17] جزيرة كمران: من جزاير البحر الأحمر قريبة من الحديدة محاذية لشبه جزيرة الصليف، وبيوت كمران ترى من ساحل تهامة لقربها منها، وهي قبالة زبيد في اليمن وهي حصن لمن ملك يماني تهامة. ينظر اليماني، اليماني، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الأول، ج1، ص187.

[18] الإمام يحيى شرف الدين هو أحد أهم الأئمة الزيديين في تاريخ اليمن الحديث ولد سنة 1472م، ودعا لنفسه بالإمامة في حجة سنة 1506م، وتوفي 1557م، وكان له دور كبير في إعادة القوة للإمامة الزيدية شمال اليمن، ينظر في زيارة، محمد بن يحيى: تاريخ الأئمة الزيديين في اليمن، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون طبعة، دون عام، ص110-115.

[19] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص160-165.

[20] المذهب الزيدي: نسبة إلى الإمام زيد الذي يصل نسبه بالإمام علي بن أبي طالب، وقد انتشر هذا المذهب في طبرستان والمناطق الشرقية من بلدان الخلافة الإسلامية، وفي العقد التاسع من القرن الثالث الهجري وصل الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين إلى صعدة، وقام بتأسيس الدولة الزيدية، ونشر المذهب الزيدي في اليمن. ينظر القصير، سيف الدين: ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن، دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، د.ت، ص18-19.

سفينة سليمان باشا الخادم لاستقباله والترحيب به، ولكن الجنود العثمانيون ما إن دخلوا المدينة حتى أعملوا فيها السلب والنهب بناءً على أوامر سليمان باشا الخادم، والذي ما إن علم أن جنوده قد استطاعوا الاستيلاء على عدن، حتى أمر بإعدام السلطان عامر بن داوود الطاهري ورجاله وتعليقهم على سارية سفينته بعد أن رحب بهم، وخلع عليهم في بداية الأمر، حتى تكتمل خطته باستيلاء رجاله على المدينة.[21]

قام سليمان باشا الخادم بعد ذلك بتحصين عدن، وترتيب دفاعاتها البحرية وزودها بالمدافع وشحنها بما يقارب من خمسمائة جندي عثماني، وعين أحد ضباط الحملة حاكماً للمدينة، وكان هذا العمل من قبل سليمان باشا الخادم قد أزعج اليمنيين وجعلهم ينفرون من الحكم العثماني لبلادهم، إضافة إلى تشويه صورة الحملة بعد تناقل أخبار غدر سليمان باشا الخادم بالسلطان عامر بين الناس، حتى وصلت إلى الهند، والتي هي المحطة الثانية لحملة سليمان باشا الخادم.[22]

تابعت الحملة العثمانية بعد ذلك مسيرها إلى الهند، ووصلت إلى هناك في 4/9/ 1538م، ولكنه أساء معاملة سلطان كجرات[23] محمود شاه، وأهان رسوله الذي توجه إليه لينسق معه كيفية المساعدة التي سيقدمها الأمراء الهنود للحملة العثمانية في سبيل التخلص من البرتغاليين، فقد أرسل السلطان محمود شاه أحد وزراءه للباشا سليمان مع وعد من السلطان للباشا بمساعدته في مقاومة البرتغاليين، ولكن سليمان باشا الخادم قابل الوزير بازدراء ولم يأذن له بالجلوس، وعندما عاد الوزير إلى السلطان محمود أخبره عن مقابلة الباشا سليمان له، وأرسل الباشا سليمان للسلطان محمود قفطاناً وسيفاً، فقتال السلطان لرسول الباشا *أخبر مولاك إن كانت الحلة والسيف من حضرة السلطان سليمان القانوني سنلبسها، أما إذا كانت منه، فمرتبته لا تسمح له بأن ينعم علينا بحلة شرف*"، فلما عاد الرسول إلى الباشا سليمان أخبره بما حدث، فتملكه الغيظ وأسف لسماحه بعودة رسول السلطان محمود شاه، ثم أن السلطان محمود شاه طلب من الخواجة صفر تدبر وسيلة لإبعاد سليمان باشا عن الهند، فلفق الخواجة صفر رسالة من كبير البرتغاليين في جوة إلى القائد البرتغالي في حصن الديو جاء فيها: أننا حشدنا قواتنا في 300 غراب و50 غاليون، وتأكد أننا سنسحق الأتراك ونبيد جيشهم، وأشاع الخواجة صفر أنه قبض على الرسول البرتغالي وأخذ منه الرسالة، وعندما سمع الباشا بذلك أرسل يسأل الخواجة صفر عن حقيقة الأمر، فأجابه أن الأمر كما سمعته، فارتعب سليمان باشا، وذلك كان سبب عودته هارباً من الهند[24]، وهذا الموقف جعل أمراء الهند يشعرون أن هذه الحملة لن تكون قادمة لمساعدتهم، وإنما جاءت لإزالتهم عن حكمهم والاستيلاء على مدن الساحل الغربي للهند، وهذا ما جعل التنسيق والتعاون بينهم وبين سليمان باشا الخادم أمراً صعباً للغاية.[25]

[21] شرف الدين، عيسى بن لطف الله: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، تحقيق إبراهيم المقحفي، مركز عبادي للنشر، صنعاء، ط1، 2003م، ص 105-110.

[22] النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص80-83.

[23] ميناء كجرات: من أشهر الموانئ الهندية، حيث يقع شمال غرب الهند مواجهاً لخليج عمان والساحل العربي.ينظر عثمان، تجارة المحيط الهندي، ص131.

[24] سرهنك، إسماعيل: حقائق الأخبار في دول البحار، ج2، مصر، ط1، 1312م، ص40-42.

[25]Ross, Edeninon: The portugus in india and arbsee between 1517-1538,J.Rs.S, part 1, Janury, London, 1922, p.15-20.

كانت الحرب مستعرة ضد البرتغاليين عند وصول حملة سليمان باشا الخادم إلى الهند، حيث كان ميناء الديو محاصراً من قبل القوات الهندية بقيادة الخواجة صفر[26]، وهو أحد الأمراء العثمانيين الذين جاؤا إلى الهند عام 1530م، وكان البرتغاليون قد قتلوا بهادر شاه واستبقوا على صفر فلما علم بقدوم حملة سليمان باشا الخادم باتجاه الهند أدرك صفر بأن البرتغاليون سوف يقتلونه في حال لم يساعدهم ضد العثمانيين فهرب من الديو سراً ولحق بالسلطان محمود ابن أخ بهادر شاه الذي كان صغيراً، وكان وزرائه يتحكمون به فأقنعهم صفر بتسيير جيش تجاه الديو فوافقوا على ذلك، وحشد صفر جماعة من العرب والأحباش والهنود وهاجموا الديو بالليل وقتلوا عدداً من الجنود البرتغاليين وهرب الباقون نحو حصن جوجلة فحاصرهم صفر وجنوده، وأبقى بعضاً من جنوده يحاصرون الديو وتوجه بقوة صغيرة إلى حصن صغير بطرف جزيرة الديو يشرف على البر، وعندما جزرت مياه البحر ساروا إليه وضربوه بالمدافع وقاتلوا حاميته حتى استولوا عليه وهرب البرتغاليون إلى الجزيرة التي يحميها سور منيع فتحصنوا بالحصن، فقدمت حملة سليمان باشا الخادم وقوات الخواجة صفر محاصرة للحصن، وقدم سليمان باشا للخواجة صفر حوالي أربعمائة جندي لمساعدته في حصار الديو من ناحية البر في حين تكفل هو في حصاره من ناحية البحر، لكن السفن توجهت إلى مظفر أباد لأن الرياح كانت شديدة فأنزلوا ثلاثة مدافع كبيرة وسحبوها إلى حصن جوجلة وضربوه بالمدافع واستولوا عليه ولم يبق للبرتغاليين سوى حصن الديو واستبسل البرتغاليين في الدفاع عنه، وبدأ إطباق الحصار العثماني الهندي على ميناء الديو وكان الحصن البحري على وشك أن يقع في يد العثمانيين، وصلت رسائل من جنوب الهند إلى البرتغاليين في الديو بأن هناك حملة برتغالية قادمة إليهم لنجدتهم، ففزع سليمان باشا واتجه إلى سفنه واستقر بها دون أن يبدي أي رغبة في متابعة الهجوم وطلب من الخواجة صفر أن يمده بعدد من قباطنة السفن ليدلوه إلى كابول لكي يلاقي الحملة البرتغالية هناك ويواجهها[27]، وكان لانعدام الثقة بين أمراء الهند والخواجة صفر من جهة وسليمان باشا الخادم من جهة أخرى قد غير الموازين خاصة وأن أفعال سليمان باشا الخادم المهينة بحق أمراء الهند جعلتهم يفضلون استمرار الخطر البرتغالي على تواجد العثمانيين في الهند، وسرعان ما أمر سليمان باشا الخادم بسحب جميع القوات العثمانية من حصار حصن الديو، نتيجة خشيته من وصول النجدات البرتغالية الكبيرة لحصن الديو، وهذا ما روج له السلطان محمود شاه ليتخلص من سليمان باشا الخادم وحملته[28]، ورغم معارضة الخواجة صفر وبعض القادة لقرار الانسحاب إلا أن سليمان باشا الخادم أصدر أوامره لجنوده بالانسحاب في 11/5/ 1538م دون أن يحصل على أي نتيجة تذكر، وأبحر بقواته عائداً إلى السواحل اليمنية مغيراً خطة حملته لتصبح إخضاع السواحل اليمنية للدولة العثمانية معوضاً ما فاته من إنجازات كان يمكن أن يحرزها في الهند، وعندما وصل إلى ميناء الشحر قام بإصدار مرسوم ثبتت من خلاله سلطانها بدر الطويرق

[26] الخواجا صفر: هو أحد ضباط البحر العثمانيين قدم إلى اليمن عام 1526م، ومن ثم توجه إلى الهند ودخل في خدمة أمرائها في حروبهم ضد البرتغاليين عام 1530م، ينظر في سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص 150-155.

[27] Serjeant, op. cit, p. 51.

[28] طقوش، محمد سهيل: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، ط1، 1988م، ص 130-135.

في حكم حضرموت[29] مقابل جزية سنوية يدفعها للدولة العثمانية، وظل سلاطين حضرموت يحكمون مناطقهم طوال فترة وجود العثمانيين في اليمن دون أن يشاركهم أحد في حكمهم مقابل دفع مبالغ سنوية للسلطنة العثمانية.[30]

تابعت الحملة العثمانية بعدها طريقها إلى عدن ومنها إلى المخا[31]، ونزلت فيها واستعدت للاستيلاء على زبيد[32] التي كان يحكمها المماليك تحت النفوذ الاسمي العثماني، وأرسل سليمان باشا الخادم الناخودة أحمد[33] حاكم المماليك في زبيد مرسوماً يأمنه فيه على حياته مع تعيينه كحاكم عثماني في اليمن، ويدعوه للمثول بين يديه، وكان الناخودة أحمد يخشى من مقابلة سليمان باشا الخادم خوفاً من أن يغدر به، وعلى الرغم من نصيحة الأمراء المماليك له بعدم الذهاب، ومقاومة حملة سليمان باشا إلا أنه ذهب للقائه مع عدد كبير من جنوده بعد أن رأى تخلي عدد كبير من المماليك عنه تحت تأثير الإغراءات المادية التي بدأ سليمان باشا يعرضها على الأمراء المماليك، ولكن سليمان باشا الخادم قام بقتل الناخودة أحمد فور وصوله إليه وذلك في 1539/7/27م، فاستطاعت الحملة بهذا أن تستولي على زبيد دون أي مقاومة من المماليك الذين نجح سليمان باشا الخادم بتفريق كلمتهم، وإخافة من كانت لديه أي نوايا للمقاومة منهم، وقام سليمان باشا بتعيين أحد ضباط حملته والذي يسمى مصطفى بك[34] حاكماً لزبيد ومناطق تهامة، وحاول أن يتوغل باتجاه الداخل اليمني، وأن يستولي على تعز[35] لكنه لم يتمكن من ذلك نتيجة المقاومة الزيدية التي واجهته من قبل قوات الإمام يحيى شرف الدين.[36]

حاول سليمان باشا أن يستدرج الإمام يحيى شرف الدين لمقابلته بإغرائه عبر الرسائل المتكررة لكن الأخير لم يستجب لذلك، ولما أيقن سليمان باشا الخادم أنه لن يحرز في اليمن أكثر مما حقق استعد للعودة إلى مصر بحراً بعد أن نظم

[29] حضرموت: صقع مشهور في الشرق الجنوبي من أرض اليمن يشمل بلدان كثيرة، وتتصل حضرموت من الشمال بالصحراء العربية، ومن الشرق بعمان، ومن الجنوب بالمحيط الهندي، ومن الغرب ببلاد يافع وبلاد العوالق، وبلاد دثينة وأحور، وبلاد البيضاء. ينظر اليماني، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الأول، ج2، ص263-264.

[30] الكبسي، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، ص235-240.

[31] المخا: بلدة بحضرموت، وهي بندر معروف على ساحل البحر الأحمر غربي تعز، وهي تبعد عنها نحو ثلاث مراحل، وهي فرضة بلاد تعز، ينظر اليماني، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الثاني، ج4، ص 694.

[32] زبيد: مدينة يمنية على ساحل باب المندب، واسم زبيد هو اسم قبيلة من قبائل اليمن، ووادي زبيد هو من أشهر أودية اليمن، ويقع على بعد ست مراحل من ساحل البحر الأحمر. ينظر الحموي، ص138. واليماني، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مجلد أول، ج2، ص380-381.

[33] الناخودة أحمد: هو أحد الضباط المماليك في اليمن، وتسلم حكم زبيد في 1536م، ينظر في القاسم، يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1968م، ص 677-681.

[34] مصطفى بك: عين والياً في اليمن للمرة الأولى سنة 1540م، ومكث فيها خمس سنوات ثم عزل عنها، وتولاها للمرة الثانية سنة 1555م، ومكث فيها ما يقرب من عام، وسمي بالنشار لأنه حينما كان أميراً للحج كان إذا وقع في يده لص أو قاطع طريق يقوم بإعدامه باستخدام المنشار.ينظر الشلي، جمال الدين محمد بن أبي بكر الحسني: السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، تحقيق إبراهيم المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط1، 2004م، ص453.

[35] تعز: تقع على سفح جبل صبر الشمالي، وهي مدينة أثرية يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وموقعها جنوب صنعاء، وتبعد عنها 245كم، وتتميز باعتدال مناخها، وكانت عاصمة للدولة الرسولية، وازدهرت علمياً في تلك الفترة، وبنى الرسوليون فيها العديد من المساجد، والمدارس، والقباب، والمآذن وجميعها تحتوي على فن معماري متميز، وأشكال هندسية رائعة. ينظر الويسي، حسين بن علي: اليمن الكبرى كتاب جغرافي جيولوجي تاريخي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط2، 1991م، ص53.

[36] النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص84-87.

أمور زبيد وعدن كما ذكرنا، وقام أثناء عودته بتحصين جزيرة كمران بشكل كبير، وشحنها بالمدافع خشية أي هجمات برتغالية محتملة، ومن ثم استولت الحملة على ميناء جازان[37] الذي كان تحت نفوذ أشراف مكة وجعل سليمان باشا أمر هذا الميناء من صلاحيات والي زبيد بشكل مباشر، ومن ثم تابعت الحملة سيرها إلى مصر فوصلت إليها في 1539/3/13م.[38]

3-نتائج الحملة وأهميتها وأبعادها:

لم تحقق حملة سليمان باشا الخادم واقعياً أهدافها الأساسية فقد لاقت فشلاً كبيراً في الهند، ولم تستأصل الخطر البرتغالي الذي ظل متواجداً في مياه المحيط الهندي، حتى بعد تاريخ هذه الحملة، كما وسعت هذه الحملة الهوة الكبيرة بين الرعايا وبين الدولة العثمانية في المناطق التي مرت بها إن لم يكن من أسلوب سليمان باشا الخادم الغادر، فمن تصرفات جنوده السيئة بما في ذلك أعمال السرقة والسلب، ومن ناحية أخرى فقد فوتت الحملة فرصة كبيرة في إمكانية تخطي النفوذ العثماني لشواطئ المحيط الهندي العربية إلى الجانب الهندي ولو اسمياً على الأقل.[39]

رغم نجاح الحملة في الاستيلاء على عدن وزبيد وتعزيز الدفاعات الساحلية فيها إلا أن طريقة السيطرة على هذه المدن فقدت قاعدة شعبية كان يمكن أن تساعدهم خلال فترة وجودهم في اليمن، لكن الأمور سارت عكس ذلك، فقد ظل هذا الأسلوب الغادر من قبل القادة العثمانيين عاملاً حاسماً في العديد من الثورات اليمنية ضد الحكم العثماني فيما بعد، وساهم سليمان باشا الخادم بتصريحاته الخاطئة والمغايرة للحقيقة في استانبول بتشويش أو تخبط التقديرات للإدارة العثمانية للأوضاع في جنوب شبه الجزيرة العربية ، فقد ادعى سليمان باشا أنه استولى على عدن بالقوة، وأنه لقي المقاومة فيها وبالغ في تصوير إنجازاته وما لقيه حسب ادعاءاته من مصاعب ومقاومة شديدة في اليمن، كما أعلن أن أمراء الهند خذلوه ولم يقدموا لحملته أية مساعدات تذكر، وأنه رغم ذلك حارب البرتغاليين وانتصر عليهم، وما أكد ادعاءه الأخير أنه قام بإرسال بعض رؤوس الأسرى البرتغاليين الذين كانوا في ميناء الشحر إلى استانبول ليثبت للسلطان سليمان القانوني صحة إدعاءاته .[40]

مدت الدولة العثمانية نفوذها المباشر إلى اليمن من خلال هذه الحملة التي أنهت قوة المماليك، وجعلت من القوة العثمانية في اليمن تخضع لاستانبول مباشرة، وكذلك أنهت وجود الدولة الطاهرية في عدن، وعززت من دفاعات البحر الأحمر والموانئ اليمنية بشكل عام في وجه الأخطار البرتغالية، كما أفسحت هذه الحملة مجالاً واسعاً لصدام العثمانيين طوال فترة وجودهم في اليمن مع الأئمة الزيديين في الشمال اليمني والذين رغبوا في الاستقلال بحكم اليمن وطرد العثمانيين منهم، وهو الأمر الذي سيتحقق لهم فيما بعد عام 1635م.[41]

كانت حملة سليمان باشا الخادم أول التحركات العثمانية الرسمية الكبيرة تجاه اليمن والتي أكدت على أهمية وضرورة السيطرة العثمانية المباشرة عليه إن أرادت الدولة العثمانية أن توقف الزحف البرتغالي إلى سواحلها في المنطقة العربية

---

[37] جازان: بلدة على ساحل البحر الأحمر من جهة صبيا وهي فرضة تلك الجهة، وإلى جازان نسب وادي جازان النازل من بلاد خولان بن بن الحاف بن قضاعة. ينظر اليماني، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الأول، ج1، ص171.

[38] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص163-167.

[39] ايفانوف، نيقولاي: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1995م، ص130-134.

[40] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص160-165.

[41] الكبسي، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، ص235-240.

الأمر الذي سيفرض على الدولة العثمانية التزامات جديدة وثابتة تجاه اليمن بعد تاريخ الحملة 1538م من تعيين ولاة وإرسال نجدات عسكرية ومادية للحفاظ على وجودها في هذه الولاية.[42]

خاتمة:

عجزت حملة سليمان باشا الخادم عن تحقيق أغراضها الرئيسية كما رسمها السلطان سليمان القانوني، ولم تنجح في إقصاء البرتغاليين بشكل نهائي عن البحار الجنوبية للدولة العثمانية، كما ساهمت الحملة في تعزيز خطة دفاعية أكثر منها هجومية للسلطنة العثمانية في وجه الأخطار البحرية البرتغالية، كما فرضت الحملة نوعاً من الحكم الرسمي للعثمانيين في اليمن، ويمكننا القول أن الاختيار الخاطئ لقائد هذه الحملة كان من أبرز أسباب فشلها بل وكان من عوامل نقمة اليمنيين على الحكم العثماني جراء أساليب الغدر التي اتبعها سليمان باشا الخادم في اليمن، وبالمجمل فإن الوضع السياسي في اليمن لم يعد كما كان قبل 1538م، وإنما سيتحدد تاريخ ما بعد الحملة عبر أحداث الحروب بين قوة إسلامية (عثمانية) وقوة محلية (زيدية) تسعى لحكم اليمن بشكل مستقل.

Reference

[1] Amer, Mahmoud Ali: History of the ottoman Empire, publications of the Faculty of Arts at Damascus university, Damascus, 2003-2004.

[2] Al-Batriq, Abdul Hamid: The Modern History of yemen 1517-1840, center for Arab studies and Research, cairo, 1969.

[3] Ivanov, Nikolai: The ottoman conquest of the Arab countries 1516-1574, translated by youssef Atallah, Dar Al-Farabi, Beirut, one edition, 1995.

[4] Al-Hamawi, Yakut: A Dictionary of the Yemen Countries, Edited by Ismail Al- Akwa, His new library, Sanaa, 1984.

[5] Al- Kibsi, Muhammad bin ismail: The Sunni Gentleness in the News of the Yemeni Kingdoms, investigated by Khaled Al-Azrai, New Generation Library, Sanaa, one edition, 2005.

[6] Al- Muwazi, Shams Al-Din Abdul- Samad bin ismail charity in entering the Kingdom of yemen under the shadow of Al-Othman justice, Dar Al-Tanweer for printing and publishing, Beirut, 1st Edition, 1986 .

[7] Al-Nahrawali, qutb al-Din Muhammad ibn Ahmad al-Nahrawali al- Makki (917-990 AH): The Yemeni Lightning in the ottoman conquest The History of yemen in the Tenth Hijri century with Expansion of News of the Circassian and ottoman conquests of that country, Supervised Edition by Hamad Al-jasser, Dar Al- yamamah publications for Research, Translation and publishing, Riyadh, Edition 1, 1967.

[8] Omar, Abdel Aziz omar: History of the Arab Mashreq 1516– 1922, Dar Al– Nahda Al–Arabiya, Beirut, 1984.

[9] Othman, Shawqi Abdul Qawi: The indian Ocean Trade in the Age of islamic sovereignty,World of Knowledge, Kuwait, 1990.

[42] البطريق، تاريخ اليمن الحديث، ص22–30.

[10] Al-Qasayr, Seif Al-Din: Ibn Hawshab and the Fatimid Movement in Yemen, Dar Al-Yanabe for printing, publishing and Distribution, Damascus, undated.

[11] Al-Qasim, Yahya bin Al-Hussein: The Goal of Wishes in the news of the Yemeni counyry, investigated by Saeed Ashour, Dar Al- Kateb Al- Arabi, cairo, 1968.

[12] Ross, Edeninon: The portugus in india and arbsee between 1517−1538,J.Rs.S, part 1, Janury, London, 1922.

[13] Salem, Syed Mustafa: The First ottoman conquest of yemen, Dar Al-Amin for printing and publishing, cairo, 5th edition, 1999.

[14] Sarhank, Ismail: Facts of News in the sea countries, part 2, Egypt, Edition 1, 1312AD.

[15] Serjeant, R.B: The portuguese of the so the Arbian coast, Hadirmi chronicles with yamn and Eurpen Accounts of dutch pirates off Mocha in 17 th century, oxford, claren, Dont press, 1983.

[16] Al- Shalli, Jamal Al- Din Muhammad bin Abi Baker Al-Hasani: Al-sana Al-Bahir by completing the blatant light in the news of the tenth century, achieved by Ibrahim Al-Maqhafi, Al-Irshad Library, Sanaa,one edition, 2004.

[17] Sharaf al-Din, Ahmed Hussein: Yemen through history, Muhammadiyah press, Cairo, second Edition, 1964.

[18] Sharaf al-Din, Issa bin Lutf Allah: The Spirit of the Spirit in what Happened After the Nine Handred of the conquest and conquest, achieved by Ibrahim Al-Mushaf, Abadi center for publishing, Sanaa, one edition, 2003.

[19] Sheikh, Zain Al-Din: The Masterpiece of the Mujahid in some conditions of the Portuguese, Lisbon, 1898.

[20] Al-Siddiqi, Muhammad bin Abi Al-Surour Al-Bakri (998-1071AH- 1589-1661AD): The Rahmani grants in the ottoman Empire and the appendage of the Lords Kindness to the Rahmaniyya grants, achieved by Dr. Laila Al-Sabbagh, Dar Al-Bashaer for printing, publishing and distribution, Damascus, one edition,1995.

[21] Taqqosh, Muhammad Suhail: The History of the ottomans from the Establishment of the state to the Coup of the Caliphate, Dar Al- Nafaes, Beirut, Edition 1, 1988.

[22] Al- Waisi, Hussein bin Ali: Greater yemen, Geographical Geographical Historical Book, Al-Irshad Library, Sanaa, Edition 2, 1991.

[23] Al-Yamani, Judge Muhammad bin Ahmad Al-Yamani: The Totality of yemens countries and Tribes, Volume Two, part Three, Edited, corrected and Revised by ismailfrom on the elbows, Dar Al-Hikma Al-yamaniya for printing, publishing, distribution and advertising, Edition 1, 1984.

[24] Ziyarat, Muhammad bin Yahya: History of the Zaidi Imams in Yemen, Library of Religious Culture, Cairo, without Rdition, Without year.